

وضع التعليم والعلماء في الجزائر العثمانية

د. احمد بحري*

لم تكن العناية بفئة العلماء سلوكا اختصّ به العهد العثماني، ولا هو ميزة عرفتھا الجزائر دون بقية دول العالم الإسلامي، لكنّ هذه الفئة امتازت في الجزائر بكامل الاحترام والتقدير وموفور الكرامة، والسلطة الروحية لدى الأهالي؛ لهذا السبب تقرب منهم رجال السلطة وخشوا بأسهم .

وبما أن الطابع الغالب إبان الوجود العثماني بالجزائر؛ هو الطابع الديني العلمي، فلم يفصل بين العلم وبين الدين لأن كلاهما يرافق الآخر، فحسب معيار ذلك الزمن؛ فإن العالم الحق هو من جمع بين العلوم الشرعية وغيرها من العلوم ، فكل محدث أو فقيه أو مفسر يعد في نظر الناس "عالما"، ويلقب بسيدي فلان"، وإن جمع بين عدة علوم فهو عالم نحرير .

وقد قسّم الدكتور سعد الله العلماء خلال العهد العثماني إلى ثلاثة أصناف: العلماء الموظفون (ككتاب الإنشاء أو الخوجات)، والفقهاء المستقلون (المثقفون الأحرار) الذين لا صلة لهم بالتصوف ولا بالسلطة، ثم العلماء المتصوفة، أو المتصوفة دعاة العلم والولاية (المرابطون)¹ .

* أستاذ محاضر كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

هذا من الناحية العلمية ؛ أما من الناحية الوظيفية فهم طبقتين : الطبقة الرسمية التي تشمل القضاة والمفتائي والمدرسين ، ثم الطبقة الملحقة بها من رجال الزوايا والمتصوفة وسلالة الأشراف ، المنحدرة من سلالة الرسول " صلى الله عليه وسلم "، وهم على شكل مجموعات في كل الأحياء تحت رئاسة " نقيب الأشراف "، وغالبا ما يكون تابعا لنقيب إسطنبول ، وقد تولت هذه الأخيرة وظائف دينية ² .

وحسب حمدان خوجة فقد وجد في كل مدينة نقيب للأشراف بمثابة الحاكم الثاني للمدينة ، ويختار من الأسر الشريفة ، وواجهه كلما حدث أمر هام أن يجتمع في بيته مع شيخ البلد وسائر الأمناء التابعين له من أجل اتخاذ التدابير اللازمة ³ .

وقد اشتهرت هذه الفئة بالورع والتقوى، وهذا الأمر أكسبهم احترام وتقدير الحكّام، الذين سعوا إلى التقرب منهم، ومن هؤلاء الداوي بكداش الذي سعى إلى كسبهم، فبنى لهم زاوية خاصة بهم عام 1709 م ، كما أوقف لها أوقافا. يندرج ضمن فئة العلماء - كما أشرنا إليه سابقا - المفتائي والأئمة والخطباء والوعاظ والمؤدّبون والقائمون بشؤون المساجد ، وخدام الأضرحة ، إضافة إلى الخوجات .

هذا وتنتمي فئة العلماء بالمدن إلى طبقة الحضر ، التي تأتي في المرتبة الثالثة في المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني ، وهي لم تطمح إلى مناصب سياسية ، بل اكتفت بالمناصب الدينية والعلمية .

أمّا بالريف؛ فكان المرابط ينتمي إلى عائلة دينية، ويكون في دائرة ضيقة عن عالم الريف، يعمل على رعاية التعليم والقيام بدور المؤذن والإمام ، إضافة إلى الفصل في الخصومات والإصلاح بين القبائل⁴ . هذا وكانت فئة العلماء في الجزائر عربية باستثناء القضاة والمفتي الأحناف.

يعرفها (أندري ريمون) على أنها : " تجمع بشري واسع وغامض وغير متحد في نشاطاته"⁵ ، فهي لم تشكل تلاحما اجتماعيا ، بل تنظيما تمثل في مختلف المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية ، لتكون أقلّ انفتاحا على المجتمع ، رغم النزعة الاحتكارية الواضحة لبعض العائلات للوظائف ، من أجل الارتقاء في السلم الاجتماعي ، فكانوا مجرد وسطاء بين الحكّام والرعية .

اكتسبت فئة العلماء امتيازات ، بفضل توليها للتدريس والمهام القانونية والشرعية، لكنها أساءت لنفسها ببحثها عن الغنى والمتعة ، كما أنها تميّزت بسمة بارزة، وهي توريث الوظائف ، حيث احتكرت عائلات وظيفة ما لسنوات عدة اعتمادا على علاقة البنوة، الأخوة أو المصاهرة ، كما هو الحال لعائلة الكتروسي بمدينة مازونة كما رأينا سابقا .

كما أننا نجد أفراد هذه الفئة في مستويات معيشية متنوعة ؛ لهذا كانت عنصرا أقل ثباتا في المجتمع ، حيث أن ثروة فرد عادي قد تصل حتى 652 ريال في حين كانت ثروة عالم لا تتعدى 63 ريال⁶.

وقد اعتبر أفراد فئة العلماء كمرشدين دينيين واجتماعيين ، يرتبطون بالمجتمع عن طريق التوعية الفكرية والدينية ، وأحيانا يكونون في وجه الانحراف السياسي والتقاوس عن الجهاد ، والتعسف الضريبي ، وهذا ما زاد من قوّتهم ومكانتهم .

لذا مثلوا الرأي العام بالجزائر ؛ رغم ترفّعهم الطبقي ، فصلتهم بالأهالي كانت عن طريق الدروس ، ومنهم من كان يجلس في المقاهي ، ويختلط بالناس ، فيكثر عليه الدرس والخطب فيلفت نظر السلطة ويكثر حاسديه من بين نظرائه فالتنافس بين العلماء كان ظاهرا للعيان في كثير من الأحيان.

ولم تختلف مازونة عن غيرها من المدن الجزائرية؛ فكثيرا ما شبّ الصراع بين علمائها وأئمّتها، وتنافسوا على مواقع التدريس والإفتاء، بل وصل الأمر بينهم إلى أن يمنعوا بعضهم منابر التدريس حتّى تتدخل سلطة البايليك للفصل بين خصوصياتهم، فهذا الخليفة عثمان يحدّد مواقيت التدريس في جامع السيّد عبد الحقّ، لكل واحد من المتخاصمين ، كما تبيّن الرسالة التي بعث بها إلى القايد بن عبد الله بن خدومة لفضّ النزاع.

وقد جاء فيها ما يلي : " الحمد لله ... متصرف القايد بن عبد الله بن خدومة سلام عليكم وبعد : فإنّه بلغنا ، وأنّ أهل الجوامع يمنعون الطلبة من

القراءة في المساجد ، والمساجد أصلها لله يقرؤون فيها كل أحد ، فنبّه عليهم أن لا يمنع أحد الطلبة من القراءة في المساجد . وأولاد السيد المهدي يقرؤون في مواضعهم. هذا ما منا يرى إليكم . وكتب بأمر المعظم السيد : عثمان الخليفة ، أمّنه الله . آمين " ⁷ .

وقد كتب على الهامش باتجاه الأسفل ما نصه : " الحاصل المفتي يقرأ في موضعه وقت الصباح في جامع السيد عبد الحق ، والسيد محمد الصغير أخيه يقرأ وقته في وقته امتاع العصر ، كذا عمّه السيد محيي الدين يقرأ فيه " ⁸ .

مع الأسف الشديد ؛ فإنّ الأخبار عن أعلام الجهة الغربية قليلة جدا ، والقليل الموجود في بعض المصنّفات لا يفي بالمطلوب ، بخلاف الحال مع الشرق الذي كان حظّه أحسن ، فعلماء بجاية رصدتهم الغبريني في (عنوان الدراية) ، وأعلام قسنطينة تكفل بهم عبد الكريم الفكون في (منشور الهداية) ، أما عنابة فقد أحصى رجالها أحمد البوني في منظوماته (الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة) .

وأما في الغرب ؛ فإذا استثنينا حاضرة تلمسان التي قام ابن مريم في مؤلفه (البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان) بجمع أخبار علمائها وأوليائها ،

ومعسكر التي عرفنا أخبار أعيانها من عبد الرحمن التوجيني في كتابه (عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشرف غريس) ، فلا نكاد نجد من خصّ أعلام باقي الحواضر بالذكر ، مما ييقينا في حالة من الحاجة إلى البحث حول

تاريخ المنطقة الثقافي، خاصة بعض الحواضر التي ضمت مدارس مشهورة كالمدرسة الفقهية بمازونة⁹ التي اشتهر شيوخها بالتخصص ، فبعضهم تخصص ونبغ في شرح (مختصر) الشيخ خليل¹⁰ ، والبعض في اللغة والأدب ، والبعض الآخر في القضاء والأحكام والفرائض، وكل مشهور ومعروف بتخصصه ولا يعرف سواه.

هذه الشهرة دفعت طلبة العلم إلى الحرص على طلب الإجازات العلمية والسفر للحصول عليها إلى العلماء المشاهير في هذه المدن.

وقد تحدث ابن حمادوش عن هذه الإجازات كثيرا، وسجل معظمها في رحلته، لأنها كانت دليلا على قدر العالم ومبلغه من العلم، أو شهادتهم العلمية في ذلك الزمان، وكانت الإجازات في علوم الحديث يتصل فيها سند العلماء إلى أصحاب الصّحاح ، ومنهم إلى النبي - عليه الصلاة والسلام - دلالة على صحة مروياتهم .

ويعدّ ابن حمادوش - في رحلته - شيوخ الورززي ، واتصال السند بين الورززي والنبي - عليه الصلاة والسلام -، ليوضح قيمة الإجازة التي حصل عليها منه، ثم يعرض هذه الإجازة ، التي جاء فيها : " ... فأسمعت بعض موطأ مالك بن أنس - رضي الله عنه - من رواية يحيى بن يحيى الليثي، وأجزته سائره، وأسمعت بعض صحيح مسلم بن الحجاج القشيري، وأجزته سائره، ورغبني - أيضا - أن أجزه في كل ما صحّت لي روايته من مسموع ومجاز فأسعفته، فأجزته أن يروي

عني الكتب الستة ... وموطأ مالك ، ومسند أحمد بن حنبل ، وهذه سمعتها كلها من شيوخنا - رحمنا الله وإياهم - ...¹¹.

وذاع صيت علماء مازونة في هذا المجال ، إلى القدر الذي دفع بعض علماء فاس لطلب الإجازة منهم ، فهذا ابن رحمون الفاسي¹² ، يكتب شمس الدين أبو عبد الله محمد بن المهدي المازوني لطلب الإجازة منه ، على كثرة العلماء في مدينة فاس ، مما يدل على شهرة مازونة ورسوخ قدم علمائها في هذا الفن من العلوم .

والرسالة تفيدنا بجملة من الفوائد العلمية ؛ أقلها السند العالي في الحديث الذي تميّز به علماء مازونة ، وشهرتهم الواسعة التي كانت سببا في أن يكون للمدينة قدر من الروابط الثقافية مع عواصم الفكر والعلوم في البلاد الإسلامية¹³.

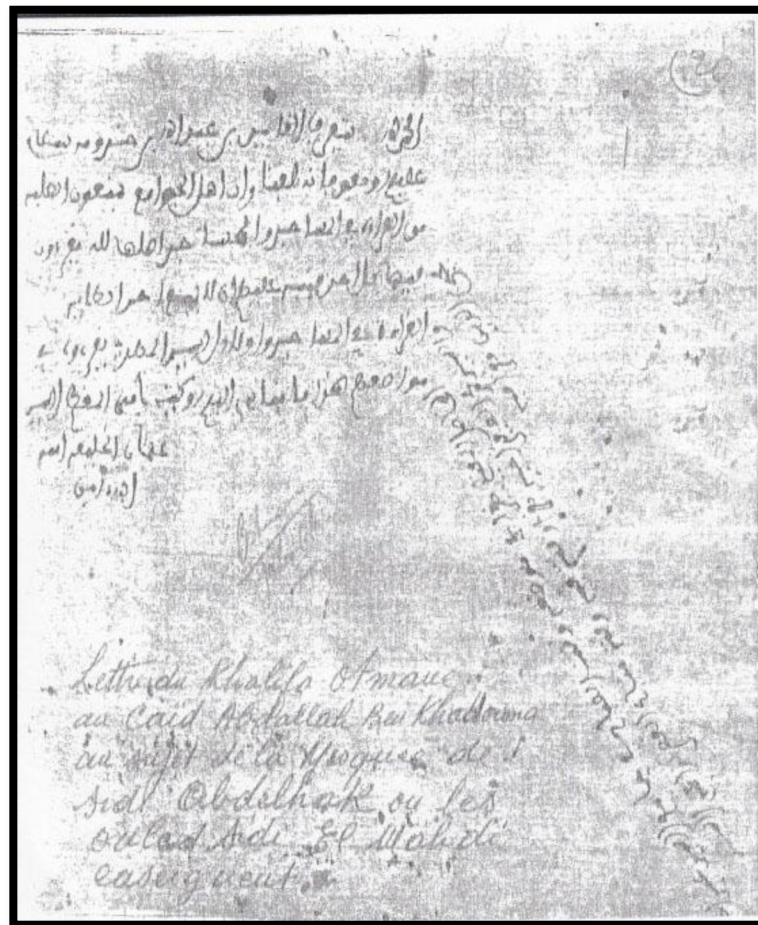
الهوامش:

1. أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق ، ج : 1 ، ص ص : 403 - 404 .
2. رشيدة شدري معمر ، العلماء والسلطة العثمانية - فترة الدايات 1671 م - 1830 ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير ، تخصص تاريخ حديث ، جامعة الجزائر ، كلية العلوم الإنسانية الاجتماعية ، 2005 - 2006 م ، ص : 48 .
3. حمدان خوجة ، مصدر سابق ، ص : 189 .
4. سعيدوني ، النظام المالي ، مرجع سابق ، ص : 45 .
5. رشيدة شدري معمر ، مرجع سابق ، ص : 49 .
6. نفس المرجع ، ص : 49 .

7. ينظر الملحق رقم : 1.
8. نفس المصدر
9. محمد الأمين بالغيث ، مدرسة مازونة الفقهية في القرن الرابع عشر الميلادي ، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية ، تصدر عن مخبر بحث الشريعة جامعة الجزائر ، العدد 1 ، الجزائر ، 2004 م ، ص ص : 122 - 123 .
10. الشيخ خليل (ت 776) : هو خليل بن إسحاق المعروف بالجندي المالكي ، العالم الفقيه العلامة ، له تأليف أشهرها المختصر الفقهي المعروف باسمه ، الذي كثرت شروحه مما يدل على أهميته في المذهب المالكي.
11. ينظر: ابن مريم أبو عبد الله محمد ابن أحمد الشريف الملبتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1986م ، ص : 96.
12. ابن حمادوش ، رحلة بن حمادوش الجزائري ، تحقيق وتقديم د/ أبو القاسم سعد الله ، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1983 ، ص : 37 .
13. محمد التَّهَامِي بن المكيّ بن عبد السلام ابن رحمون : من رجال الحديث . مولده ووفاته بفاس . من مؤلفاته (الدر والعقيان) في كتب الحديث ورجاله وما اتفق له من أسانيده . توفي سنة : 1263 هـ - 1847 م. ينظر : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 6 ، ص : 64 .
14. ينظر نص الرسالة كاملا في الملحق رقم : 2

ملحق رقم : 01

ترخيص من الخليفة عثمان لطلبة القرآن



ملحق رقم: 02

رسالة طلب استجازة من الشيخ شمس الدين المازوني

